زنجبار

أرض القرنفل.. والسلاطين

بدا لي الأمر أقرب الى دخول حالة تاريخية مدهشة.. التراجع عنها ليس واردا، سادرا في غيّي حيث اتبع التاريخ كمستكشف نسي حاضره وولّى وجهه صوب الماضي.. اليوم خيالي الواسع، والأمس عبوري الممكن.تأخرت عن زنجبار كعادتي مع المدن التي تسحبني إليها عنوة.. مستعينا بخرائطي الذهنية القديمة لعبور المسافة بين ساحلين لا تصل بينهما سفينة شراعية وقودها الهواء، ودروبها همم الرجال، تمخر الماء بكل وجل تقاوم غدر البحر، بل خمس ساعات من التحليق جوا كنورس عملاق اختار مساره.. وطار.

محمد بن سيف الرحبي

زنجبار علقتني بها طويلا، منذ جلجلة الكلمة في اذني طفلا عن راحلين إليها وعائدين منها..

رأيتها في سمرة الوجوه، وسمعتها في لكنة الألسنة، وقرأتها في عناوين مجد، حيث البرتغاليون يجمعون آخر ما تبقّى من تاريخهم الإمبراطوري هاربين تلاحقهم سيوف اليعاربة..

وحيث يبدأ السيد سعيد بن سلطان يعلم (السواحل) أبجديات حضور عماني، رافعا اسنّة مجد على ذلك الساحل البعيد.

يممت وجهة سفري نحو زنجبار، ومعي، في جرابي حكايات من ذلك الزمن العتيد، يقولها المغامر العماني الأول حين وضع قدمه على (البر) وقال هنا سأصنع تاريخي.

لم تكن زنجبار منفى مع رحلات العمانيين إليها بحثا عن لقمة عيش وتجارة.. حين حاصرتهم فتن الحروب الأهلية والقحط والمجاعات..

كانت وطنا احتضنهم ورعاهم.

زنجبار هي قصة التداخل بين حضارتين، عمانية آتية من خلف البحار.. وإفريقية تغازل الغزاة والمستعمرين والتجار والمغامرين.. هي حكاية إنسانية لا تكفّ عن المزاوجة بين أقدار الحاضر وتبعات الماضي.. تقاوم تستطيع الانفلات

شموخ النارجيل، واتساع البحر

بيت العجائب.. أعجوبته في تساقطه تحت عواصف الإهمال.

بيت المتوني

مما حدث لأن الانصهار أقوى من محاولات فصل الأقدار عن بعضها البعض، عمانيون في زنجبار.. زنجباريون في عمان.. هذا الرحم المتداخل عبر مئات السنين علامة لا تنقطع تروي زماامبراطوري اضع عمان وزنجبار في كفة تاريخية واحدة.. ربما تغيرت معطيات التاريخ وحسابات السياسة.. لكن الدم الذي جمع الجنسين العربي والأفريقي عصي عن تغيير سماته، وسيبقى يوجّه بوصلة القلب العماني صوب الساحل الأفريقي كما هي بوصلة أولئك الذين يشعرون انهم عمانيون رغم أنف الأوراق الرسمية.

هكذا يضغط التاريخ على مسافات أقطعها بين ساحلين، كأنما عام ١٩٦٤ أسقطه الزمن من حساباته، وأن السلطان جمشيد لم يقل «كواهيري» لعاصمة ملكه.. وملك آبائه واجداده.. وأن ضحايا المذبحة الرهيبة لم يكونوا هناك عندما غدر بالحضور العربي في جزيرة كانت قبلة العالم التجارية، وعرفت المدنيّة قبل أن تدركها حتى مدن أوروبا.

أحاول الخروج من عنق التاريخ لأمدّ عنقي قليلا من نافذة الطائرة علّ البحر أسفلها يخبرني أين مات السيد سعيد بن سلطان، سلطان مسقط وزنجبار.. حيث كان يتنقل بين عاصمتي مجده.. يخبرني عن أية بقعة انتظرت جثمانه ليبكيه بيت الساحل وبيت المتوني.. وآلاف البيوت التي أدركت أن مجدا عربيا مختوما بقوّة إمبراطورية عمانية يتراجع صوته على صدى الفرقة بين الأبناء.

وحين حطت الطائرة العمانية على مدرج المطار، مطار عبيد كرّومي، بطل الاستقلال لدى أصحاب الأرض، والسفّاح كما تسمّيه أبجدياتنا، همس التاريخ في اذني.. وقال: هنا زنجبار التي ترقّبت رؤيتها، مبللّة بماء المطر، الخصب الذي لاحقه بنو وطنك حينما يبس الزرع وجفّ الضرع، كانت خطوات باتساع بعيد تفصل بين مدرج الطائرة ومبنى المطار مشيتها في دقيقتين، لكن الزمن مضى بي نحو قرنين، إنما المبنى فاجأني ببساطته، كل ما حولي دال على مكان لم يدخل العصر الحديث بعد.. دخلت في زحام البحث عن الحقائب بين وجوه لوّنتها قارات عدة أرادت اكتشاف المدينة / الجزيرة، لكن البدائية حاضرة وكأن شوارع المكان تتوق إلى زمن كانت فيه زنجبار لؤلؤة أفريقية تشدّ إليها رحال تتعدد بتعدد المقاصد.

السلالم التى صعد عليها سلاطين وأميرات في بيت المتوني

بيت عماني قديم يحاكي طريقة المعمار في السلطنة

ما تبقى من قصر المرهوبي

المسجد الأباضي في بيمبا

ليت لي مئات الأعين تقرأ الأمكنة العابرة خلف زجاج السيارة، السلاطين العابرون بين قصور ومزارع وحكايات تنقش سطورها ملوّحة بأياد من ضوء، تماما كما رأيت في الحارات مطرح حيث الصور تأتينا عن ستينيات وسبعينيات القرن الماضي.. كان التاريخ يمشي معي يلقي علي عباءته رغما عن حاضر أريد أن أراه دون ضغط الأمس متشكّلا غشاوة على بصري وضبابية على بصيرتي.

البسطاء يسيرون على دراجاتهم الهوائية وأطفال يتراكضون خلف بؤس الحياة والطقس يرشّ عطره فلا تعرفه الأرض كما نعرفه.. واللون الأخضر يتبتّل أمام نواظرنا فنعيد تلك النواظر صوب الأمس.. المهاجرون الذين عبروا البحر وجاؤوا.. جماعات تتبع أخرى، هذه المدينة لا تكفّ عن المطر بينما هناك بلادهم قاحلة والمجاعة تلاحقهم.. هنا الزعفران والقرنفل والأرض المرتوية بغيث لا ينقطع.

تسمى زنجبار «بستان أفريقيا الشرقية» ويبلغ طولها ٨٥ كلم، وعرضها حوالي ٤٠ كلم، وتتميز بأرضها الحجرية التي تصلح لزراعة الأرز والطلح والمهوغو والجزر والحبوب، وفيها حوالي مليون شجرة قرنفل، ويقطعها نهر مويرا.

وكانت قصيدة نزار قباني عن غرناطة تقف معي أمام بيت العجائب وتختال زهوا على شرفات بيت الساحل كأنّي أرى السيدة سالمة تترقب حضور والدها، وترقب مجيء عمتها عزة بشخصيتها القوية تحافظ على المسافة بينها كزوجة

الألوان.. خارطة البيوت والمزارع.. والبحر

ابتسامة فرح على وجوه مكدودة

من سلالة السيد السلطان وزوجاته الأخريات مما جادت به نساء الأرض.

استيقظ التاريخ أمامي كما رأيت في قصيدة نزار يقظة مؤلمة ألقتها الفتاة الغرناطية على فؤاده فسار خلف دليلته.. ووراءه التاريخ كوم رماد، وفق الوصف النزاري العميق.

ما أغرب التاريخ كيف أعادني لحفيدة سمراء من أحفادي.

لا تزهو القصور بدون حضور السلاطين ولا تجمل الشرفات حينما تغيب سيدات القصر وصباياه، كان بيت الساحل موغلا في ذاكرتي منذ أن تتبعت المصادر لأكتب روايتي «السيد مر من هنا»، وسألت دليل الرحلة عن بيت المتوني، قال إنه يبعد عدة كيلو مترات عن هنا.

كانت جدران بيت الساحل خجلة تحت وطء سير الزمان على بياضها.. كأنما تعبت من التلويح للبحر أن يعود سيد البحر من رحلته الأخيرة.. لكن على مقربة منه ينام السيد في قبره.. ملتحفا بالمجد، كانت النخلة بجواره تقف حيّة كأنما تحرس الجدث، وتحاور الزوار نيابة عنه، حيث تتحرك السعفات حزنى كلما هبّ من الفرضاني.. نسيم.

من خلف الباب المغلق أتسلل ببصري، معي نزار ايضا: الزخرفات أكاد اسمع نبضها والزركشات على السقوف تنادي على الساحل كانت القوارب تمرح على حواف الماء كما يفعل الصغار والشباب.. وجوه كثيرة تشبهنا، صوت الأذان يرتفع من مسجد السيد حمود بن أحمد البوسعيدي.. قريبا من البحر.. قريبا من القلب.

من الأبواب القديمة الشاهدة على عظمة مجد

مطر يسفح ماء التاريخ

في الصباح التالي ألمّ بي فرح ما تبقّى من بقايا مطر تناثر على الدروب، أستعيده قطرات تعرفها بلاد «بر الزنج» حيث لا حاجة لاخضرارها أن يسقى سوى بالمطر.

يأخذنا الشيخ عبدالله البحري أمين عام جمعية الاستقامة الزنجبارية إلى مشاريع وأفكار وطموحات تعمل عليها الجمعية لنشر العلم ومساعدة الفقراء، يأخذنا إلى بيوت العمانيين الذين صمدوا في وجه التهجير ومحاولات تفريغ زنجبار من العنصر العربي.. خاصة العماني على وجه التحديد.

حدثنا الوالد حميد المعدي عن مغادرته قريته في بسيا بولاية بهلا عام ١٩٤٨ معايشا ما حدث عام ١٩٦٤ من مجازر رهيبة. يقول ان القتلة جاءوا من البر التنزاني، يشيرون إلى تنزانيا على أنها البر.. حيث البحر يحيط بهم من كل الاتجاهات، حكى مع التمر والقهوة ذكريات عبرت عقودا من السنين والعمر.

مررنا بمنزل الشيخ مسعود الريامي ومجموعة من منازله التي صودرت في فترة الانقلاب ثم عاد لشراء ما أمكنه منها، الأبواب والنوافذ والجدران تكاد تنطق بما مرّ على الأمكنة من أحداث.

وعبرنا المنزل الذي أقام فيه الشيخ محمد المنذري مدة ١٨ عاما، وبجواره المسجد، هو القاضي وممثل السلطان برغش.. اعتزل في منزله كل تلك السنوات بعد تعيين الانجليز للسلطان حمود حيث يرى أن السيد خالد بن برغش أحق بالحكم، فاعتبر أنها اصبحت أرض نصارى..

ما تبقى من بيت بيبي خولة

شدّني فندق أنيقٌ، قيل لي إنه كان مقر الجمعية العربية، وصودر أيام الانقلاب ثم بيع في مزاد علني ليكون فندقا هنديا، جلنا في منطقة فوجا، منطقة راقية بها رائحة أيام السلاطين، كما تضم المحكمة العليا، وبين الجدران تعبرني حكايات تتقافز كفراشات جميلة، ومرات تنقضّ كغربان ناعقة من سواد تلك اللحظة المفصلية بين ما قبل عام ١٩٦٤.. وما بعده.

كانت الحارة تقول إن جدرانها الشامخة هي الباقية من أيام المجد العماني، معمارها يقاوم، الأبواب والنوافذ تميّز منازل العمانيين، دخلنا مسجد المحرمي.. أول مسجد رفع أذان صلاة الجمعة في شرق افريقيا منتصف الثمانينيات وشكّل انطلاقة جمعية الاستقامة، من نافذته في الطابق الثاني كنيسة تطل، كانت أرضا لمن بنى المسجد لكن للتاريخ تحوّلاته.. وللوقائع.. أحوالها.

منزل الشيخ مسعود الريامي

كان الوالد سليمان بن خلف الجابري يتّكئ على ثمانينيات عمره ويقول انه ولد هنا، واستقر منذ عام ١٩٧٣ إماما لمسجد السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي زوج زمزم بنت السيد سعيد بن سلطان الذي اعيد ترميمه وكان شاهدا على مذبحة عام ١٩٦٤.

التقينا بشاب كيني أسلم وبقي يتلقى دروسا في مساره الجديد الذي اختاره وقد فعل شاب مثله قبل سنوات ما فعل ليدخل الإسلام على يديه عدد كبير بينهم والداه.

عبرنا الحارة الهندية بأسواقها حيث تحفز الحكومة على توسيع حضورهم بمواجهة الحضور الإسلامي لسكان المدينة الأصليين وأغلبهم مسلمون.. وعبرنا كنوز الأمس

الوالد سليمان الجابري في مسجد مكث فيه ٢٧ عاما

بعبرات كعابر بين زوايا الأندلس، كانت المدينة تضم سكة للحديد عام ١٩٢، وفي بيت العجائب رأينا المصعد..
في مرحلة الاهمال تحول بيت العجائب إلى مخزن للأسمنت، وكذلك بيت الساحل، أنقذهما بروفيسور هندي مسلم قضى حياته في زنجبار فبدأ مشواره الصعب ليستعيد البيتان رونقهما.. ولو قليلا.. كان بيت العجائب يدعو للعجب، لفرط فخامته قديما.. ولما عليه حاله اليوم، ككل التاريخ العماني الذي سار على هذا التراب منصهرا في الحجر والبشر، التقاء جعل من أرض القرنفل فتنة أمام التجار والمغامرين.
المطر الذي صافح صباحنا لم يكن كافيا لغسل بؤس الوجوه الغارقة في تناقضات تواجهها.. كل ذلك الجمال في الطبيعة لا يكفي البشر السائرين في دهاليز الفقر وضعف البنية الاساسية، وتلك الفنادق والمنتجعات التي يقال انها تتجاوز الألفين لا تنعكس على وجه المدينة.
الطرقات معجونة بالطين، الحفر الغارقة بمياه الأمطار، والبحيرات الصغيرة الحافّة بالشوارع، والمنازل البسيطة العاجزة عن إشعال قناديلها ليلا، حتى إذا حان المساء ارتدت عتمة المكان، وواجهت قدرها الذي اعتادته كأنما هو الواقع العادي.
زنجبار التي يأتي إليها المستثمرون من شرق الأرض وغربها لا يصيب ندى ملايينهم سوى جيوبهم التي لم تعط لانسان المكان ما يستحقه.. وبقي العربي / العماني الكائن المريب في التجوال حيث القوى الجديدة / القديمة تحاصره ليكفّ عن محبة مكان لا يشبه اية أمكنة أخرى.. وقد تجمّلت حاراتها بقصور السلاطين ومنازل الرعيل الذي أسس للحظة اندماج إنساني كأنه حدث البارحة.. كان التعليم والنظافة مضرب المثل، وقوة الاقتصاد دالة عليها المباني المقاومة لجريان الزمن رغم تعاقب السنين قرنا إثر قرن.
ليس ببعيد، القلعة بعمق التاريخ، تصمد في وجه البحر والحكايات المختلفة حول مرجعيتها.. قالوا إنها برتغالية، وقالوا إن المكان بقي على حاله كيوم غادره آخر السلاطين..
وسمعنا عن تداخلات السياسة وطبيعة الحكم المحلي حاليا ومحاولات تغيير ديموغرافية الجزيرة بما يضغط على الوجود العربي بموازاة تقديم ذلك الحضور، العماني بالطبع، على أنه تاريخ استعماري واسع من الاضطهاد.
في عام ١٩٢٣ أقيمت في زنجبار المدارس النظامية التي كان أغلب طلابها من العمانيين كونهم حكّام البلاد، فيما كان للجاليات الأخرى مدارسها، لكن هذا الوضع كانت له عواقبه السلبية بعد الانقلاب حيث إن تلك المدارس أخذت من العمانيين بينما قامت مدارس الجاليات بالمحافظة على الهويات المنتمية إليها.
عبرنا المسافة إلى بيت بيبي خولة بنت السيد حمود بن أحمد بن سيف البوسعيدي، حفيدة السيد سعيد بن سلطان، وفق ما سمعنا، وكانت أشجار المانجو، أو ما تبقّى منها، تصطف على جانبي الشارع كما أمرت بزرع ٢٥٠ شجرة، فيما يستعيد معهد الاستقامة هذا الملمح التاريخي بغرس مثلها على المساحات المخصصة له.
كانت جدران المكان تروي سيرة من عبروا هنا، خولة لم تعد تعرف أي زمن استوطن المكان بعدها فترك الأطلال تبكي على قصة كتبتها، جاءت الأحداث لتسيء إلى تاريخها، قالوا إنها كانت تقتل العبيد وتزرع فوق قبر كل واحد منهم شجرة مانجو، اقتلعوا الأشجار، وتساقطت الجدران، وتساقط.. تاريخ!
في منطقة «بوو جو» بدت لي المتناقضات واسعة، قال رفيق الرحلة إن الصور تبدو معبرة عن واقعنا قبل عشرات السنين، حاراتنا وبيوتنا البسيطة، بيوت العمانيين الباقية من تلك الحقبة، والعمانيون الذين عادوا حاليا للاستمتاع باستعادة الطفولة وجمال المدينة في تجليها المدهش مع الطبيعة اخضرارا ومطرا.. أسسوا مطاعم ومنازل ومزارع..

إنما تبدو في سياق المكان مثل حالي إذ استعيد ما هو خارج سياق التاريخ وشروطه الجديدة.
مررنا ببوابة سائلين عن مطعم ما فاكتشفنا أن وراء البوابة مكانا جميلا يمتدّ حتى البحر، وأكلات بها تلك النكهة المازجة بين العربية والإفريقية.. وإذ نغادر المكان كان صاحبه يلوح لنا بذات الابتسامة التي تشبه مذاق الطعام.. هو عماني.. بملامح أفريقية أنيقة.
المحلات التجارية بدا أغلبها بدون لوحات كالتي نعرفها، والشوارع لا تشبه الشوارع، والحياة حكاية تتلى على مهل.. نراها في الوجوه المعروقة تطلب الرزق كفافا، وفي أقدام الصغار يجرون حفاة مبللين بالمطر ورمل البحر.. وشقاء العمر.. وآه من رمال البحر حيث تبدو بيضاء كصفحة نسي الماء أن يكتب عليها حكاية بعمق التفاصيل المنسية بين زمنين.. فصلت بينهما أزمنة.
الحكومة المركزية كانت ترفض فتح جامعة في زنجبار لكن قبل عشر سنوات أقيمت جامعة زنجبار وهي جامعة خاصة، كما أقيمت جامعة سوزا، وهي حكومية بسبب ضغوط المعارضة فأقامتها الحكومة لتسحب من المعارضة ورقة منها، وعملية اختيار الطلاب تأتي وفق الحزب الحاكم .. أقيمت قبل أربع سنوات بتمويل أمريكي.
الجزيرة تشهد تنافسا حتى على التعليم بين القوى المتصارعة، فهناك تنافس سياسي على التعليم، إيران ستبني جامعة باسم ازاد اسلام، ولدى السعودية والكويت جامعة قائمة، فيما يعمل الصينيون على بسط أذرعتهم الاستثمارية وبقوة.
في مزرعة يوسف بن عبدالله الحارثي نكتشف جانبا من الحكاية العمانية في زنجبار، دخلنا مزرعته التي يقول إنه لم يبق إلا ربعها بعد أحداث عام ١٩٦٤، كانت ذات يوم استراحة للسيد ماجد بن سعيد بن سلطان، تقع في منطقة هي الاخصب في زنجبار، كان يجول بنا في مزرعة «البهارات» حيث نقف أمام أشجار عدة يشرح لنا عنها، يقول عن شجرة من بين ١٣٠ نوعا تتضمنها مزرعته إن هذه يصنع منها الصوف، ممّا يتساقط منها، ويستخرج «الفكس» من جذور شجرة القرفة.
يشير يوسف الحارثي إلى أن السيد سعيد بن سلطان أدخل نهضة علمية وزراعية واقتصادية وعمرانية إلى زنجبار

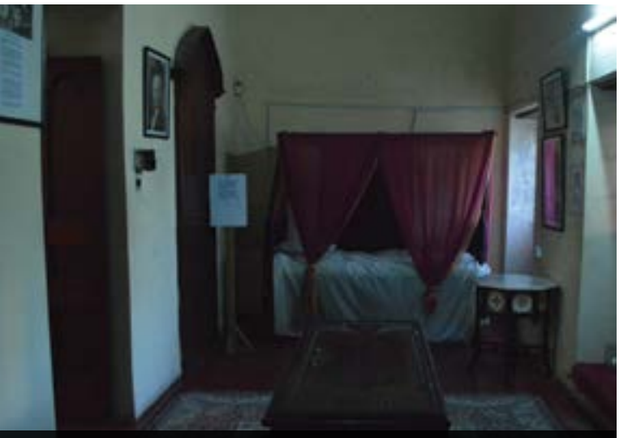
غرفة السيدة سالمة

لم تكن معروفة قبلئذ، منوها بأن زراعة شجرة القرنفل تحتاج بين ٨ إلى ١٥ سنة لتأتي بحصادها، يمتلك الحارثي في مزرعة عدة آلاف منها، يقترب من شجيرات برائحة الفانيلا، شارحا بأن الكيلو من حصادها يبلغ ٥٠ ريالا.

في قصر المرهوبي وبيت المتوني

عبرنا الحراس الأفارقة باتجاه قصر المرهوبي، حديقة وارفة في بلاد تبدو من أقصاها إلى أقصاها حديقة جميلة لولا ذلك البؤس الإنساني المغلف بالمعاناة والفقر، قصر المرهوبي؛ من أجمل القصور التي بناها السيد برغش بن سعيد في زنجبار عام١٨٨٢ م بعد بيت العجائب لكنه تعرض للحرق عام ١٨٩٩، وسمعت أنه بناه لزوجته المنتمية لعائلة المرهوبي.
جلنا على بركة السباحة والحمامات المهيأة على النمط الشرقي، كانت الأطلال تبكي أكثر مما مرّ عليها من سنوات العز، حيث كان المكان فسحة نعيم لم تجد من يحافظ عليها، أو يستثمرها، لم تكن رائحة الورود والياسمين وثمار المانجو ما يحاصرنا ونحن نتفيأ روائح الأمس الزكية، بل رائحة «القاشع» تهبّ قاسية علينا قبل أن تكون على المكان، على مقربة كان مئات العمال يطبخون الأسماك الصغيرة ويجففونها في مساحات فيما يعمل البعض على تعبئتها في «جوانٍ» ضخمة تزن الواحدة منها نحو ٥٠ كيلوجرامًا.
أما بيت المتوني فقصة حزينة أخرى، تساقط طابقه الثاني، وبقيت الحيطان شاهدة إثبات على زمن كان البيت حياة

أبواب اشتراها مواطن سويدي من الفقراء بثمن بخس ويريد بيعها بمليون دولار.

بالغة الفخامة والمجد، زمن السيد سعيد بن سلطان، وزمن السيدة سالمة وهي تصف في مذكراتها كيف كان البيت يضج بالعشرات من زوجات أبيها وأبنائه، متباينى الألوان والملامح، لكن يجمعهم البيت كما هو مجد سيّد البيت.

نبتت الأعشاب والطحالب على السلالم التي وصفتها السيدة سالمة وهي تختال كبيقة أميرات البيت صعودا ونزولا، قبل أن يأتي النزول الأخير مع وفاة والدها.. واختلاف أولاده من بعده على تركة أبيهم، من الحكم، ومن المجد الذي تركه بين أيديهم.

استعادت الصور والملامح والأثاث الموزع على غرفات متحف بيت الساحل، صور سلاطين لا يمكن لزنجبار أن تمحوهم من ذاكرتها، مهما بدت المحاولات لطمس المعالم التي تركوها.

بيمبا.. الجزيرة الخضراء

سرت إلى بيمبا، أو كما تسمى الجزيرة الخضراء، وتشكل مع اونجوجا أرخبيل زنجبار، تجاورهما مجموعة جزر أخرى صغيرة أغلبها غير مأهولة، ويبلغ طول بيمبا قرابة ٧٨ كيلومترًا وعرضها ٢٣ كيلومترًا، وأرضها خصبة جدا، وتشتهر بزراعة القرنفل والنارجيل، أكثر أمطارا من زنجبار وألين هواء، وقرنفلها غاية في الجودة، وفيها نحو ثلاثة ملايين شجرة قرنفل.

بدأت متعة الاكتشاف من تلك الطائرة الصغيرة التي ضاقت بركابها الاثني عشر لكنها حلقت عاليا بسلاسة بالغة كأنما كنت في حديقة العاب تتشبه بالواقع، ولست في طائرة حقيقية مضت تطوف بنا فوق زنجبار حيث نمرح ونبتهج بهذه اللعبة الحقيقية مكتشفين الجمال من الأعالي وكيف كانت الأرض خضراء منبسطة على مزارع فخمة الحسن.. ومنازل فقيرة الملامح.

من النافذة تبدو السحب أبهى، طبقات نجول بالقرب منها.. والبحر أشد سحرا حيث تتمازج الزرقة بدرجات اللون وتداخلها مع السحاب والمطر.

حقا انها خضراء.. بل مدهشة في هذا اللون الأخضر وهو يتخذ خارطته كمن يرسم على صفحة ماء ممتدة الزرقة..

مطار بيمبا مبلل بالمطر يتساقط صيبا، اتخذنا طريقنا إلى غرفة صغيرة، قاعة الوصول، يغمرنا الترحيب من مستقبلينا، أسماء عمانية وقبائل تعرفها ولايات عمان وقراها على سفوح الجبال أو على حواف الماء.. بجوار ساحل بحر أو ساقية فلج.. لهم سمرتهم الداكنة.. يسألون عن الاخبار والعلوم، لكن جنسيتهم تباغتنا.. تنزانيون كما يقول جواز السفر.. رغم أنف كل المعطيات التي لا تدل على ذلك.

قبل شروق الشمس اتخذت شارعا طويلا ممشى، ومن التطمينات غطاء.. أردت السير في الشارع التقي الناس لا أصافحهم بعيني فقط من خلال نافذة السيارة. .

رأيت الجزيرة الخضراء في الملابس التي تشبهنا.. في كلمتي «السلام عليكم» يلقيها رجل أنهكته السنين يدفع دراجته الهوائية. لأراها في العيون الصغيرة حيث أطفال يراقبون هذا الغريب الذي لا يشبههم مهما بدا اللون ليس بعيدا تماما.

سرت ومعي التلاميذ حيث اللون الأخضر يغري بالمشي.. ذاهبون إلى مدرستهم، قليلهم على دراجة هوائية وأغلبهم يمشي، سيارة نقل صغيرة هي حافلة المدرسة وقد تكدسوا فيها.. تمعنت في الملامح، الأقدام المنسحبة بتعب وبعضها حافية، في حقائبهم، في ذلك البؤس المستوجب حمد الله وشكره على نعمه علينا، لا معنى لكل ذلك الجمال إن لم ينظر إليه المرء بكرامة.. كرامة الاحساس بالشبع على الاقل ان لم يكن العيش كأي طفل في العالم له حقوق كإنسان يعيش الألفية الثالثة.

لقطة مع المرحوم علي الراشدي قنصل عمان في زنجبار(قبل أيام من وفاته)

الصباحات الناعسة تستيقظ بين لونين، أشجار المانجو تلقي ببعض ثمارها الخضراء فأستعيد طفولتي ومزاجي، متتبعا خطوات الصغار، كل تلك المسافات يقطعونها من أجل الدراسة، تتبعتهم مرهقة حتى إذا أخذوا طريقا فرعيا ترابيا عدت بتعجبي وتعبي دون مواصلة الدرب معهم.

أخبرني أحدهم أن الجزيرة يسكنها الكثير من العمانيين.. ومعلومة أخرى تقول انه قبل عام ٢٠١٠ تبلغ قيمة البيشي من القرنفل، والبيشي مكيال قديم كان يستخدم في عمان قديما، سبعة آلالف شلنج، فتصاعد إلى ٢١ الفا و٥٠٠ شلنج حاليا، بعد أن اكتشفوا قيمته قامت الحكومة بتوزيع شتلاته على المزارعين، لكن وحدها تشتريه منهم، مع هذا التحول الاقتصادي ارتفع معه عدد السيارات في الجزيرة من ٥٠٠ سيارة إلى أكثر من خمسة آلاف.

كان المطر ينسكب بغزارة، لاح لنا المسجد الإباضي فيمّمنا وجوهنا نحوه لأداء صلاة الظهر، افتتحه نائب رئيس جمهورية تنزانيا بحضور سماحة الشيخ أحمد الخليلي المفتي العام السلطنة، كان مزدحما بالمصلين.

وفي الميناء قابلنا الرجل البائس الذي حدثنا عنه مرافقنا ناصر الرواحي، أنه الرجل الذي دمعت عيناه وهو يستعيد من طفولته مشهد السلطان خليفة بن حارب يسير بمهابة السلاطين على رصيف الميناء، وفي المساء التقينا بعشرات الوجوه من الدارسين في إحدى مدارس القرآن الكريم التي أقامتها أكاديمية سمائل لعلوم القرآن، جائلين في المسافتين بين مشاريع خيرية أبرزها المساجد، باعتبارها تمثل للسكان المحليين أكثر من مكان عبادة، بناؤه بالأسمنت بين منازلهم الطينية، ببؤس البناء وفقره، يعطيهم مكانا يلجأون إليه، حينما يضربهم العوز بأطنابه.

في دار المخطوطات الوطنية لم أصدق المشهد، كانت الغرف الصغيرة فقيرة بقليل من المقتنيات، لكن في غرفة محاصرة بالرطوبة وماء الأمطار المتدفقة باستمرار رأيت الوثائق في أكياس وكراتين!